الابعاد الفكرية لثورة الامام الحسين واثارها على المجتمع العراقي

اولاً : الاسباب وراء ثورة الامام الحسين

يجب علينا العودة الى القول المعروف الناس على دين ملوكهم؛ فإنّ الحالة التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي حالة مزرية جداً، فقد كان المجتمع في تيه فكري، وضلال عقدي، وفراغ فقهي، صار الانحراف هو الأصل، والمؤمن غريب في الوسط الإسلامي، ذلك الإسلام الذي أفرغه معاوية من محتواه، وحرَّف مبادئه وقتل روحه، إلى أن جاء دور الابن الفاجر يزيد؛ ليعلن النهاية العملية والظاهرية لهذا الدين الخاتم، وبذلك تتحقق غاية الشيطان في الأرض (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)، منتقماً بذلك من جميع الأنبياء والأوصياءوالذين يمثلون خط الرحمن على هذه الارض.

وهذا يعكس الفجوة الكبيرة التي حصلت بين المجتمع الإسلامي ومبادئ الدين الحنيف.

وفي خضم هذه الأحداث، وهذه الوقائع المؤلمة التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي - أنذاك - أعلن الإمام الحسين عليه السلام ثورته الخالدة بوجه هذا الواقع المرير، وضد هذه الأحداث المؤلمة والانحرافات الخطيرة والكبيرة، التي لا تميّز بين الموافق والمخالف، ولا بين الموالي وغيره بل هدفها الأصلي ضرب الدين ومحو رسالة رب العالمين. ومن هنا جاءت كربلاء الكرامة لتعلن للعالم ضرورة الحفاظ على المبادئ الإسلامية والقيم.

لذلك تجسدت معالم الثورة الحسينية في واقعة الطف، فانبثقت ثورة الامام الحسين كخطاب وهوية وأهداف معلنة عند الامام الحسين (ع) أي اللحظة التي شكلت فيه اطارا فكريا وبنية منظوميه أراد الامام من خلالها ترسيخ مضامينه الفكرية اجتماعيا ، وثقافيا ، و قيميا يؤسس من خلاله لواقع أنساني جديد بدل الواقع السائد الذي ظل يخضع لتجاذبات سياسية ومادية مزقت خصوصيته الثقافية بل جعلته واقعا تابعا بعد ما كان متبوعا، اضافه الى الدور الذي يلعبه الجانب الوجداني والعاطفي متخذا من بشاعة و مأساوية يوم (عاشوراء) اطارا وجدانيا للتعبير عن قوة هذا الحزن من خلال جلد الذات لدرجة الشعور بعقدة الذنب المستمرة والتي تمثلت في التقاعس والتقصير عن نصرة الامام الحسين (ع) ، وهو ما عبرت عنه هذه الجماهير في يوم العاشر من محرم في ركضة طويريج الشهيرة والتي تعكس لحظة الصدمة التي تحاول هذه الحشود استعادتها لنصرة الامام ، كجانب تعويضي نفسي يعبر عن عقدة الذنب المتأصلة في ووعي ملايين المسلمين نظرا لما يحمله الحسين من رمزية دينية مقدسة .

لذا جاءت كربلاء الكرامة لتعلن للعالم ضرورة الحفاظ على المبادئ الإسلامية والقيم الدينية، والأحكام الشرعية؛ حفظاً لخاتم الأديان الذي هو آخر مشعل لهداية البشرية، وبذلك يتجلى القول المشهور للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بأنّ الحسين عليه السلام: «مصباح هدى وسفينة نجاة»[30] ، فقد حذّر الإمام الحسين عليه السلام - من خلال شعارات ثورته المباركة، ومن خلال خطبه العديدة - من الخطر العظيم الذي كان يحوم حول الأمة وقيمها، فقال: «... وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي...» ، ومبيّناً الممارسات المنحرفة والضالة التي كان يمارسها يزيد بن معاوية، بقوله: «... ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»، ومشجعاً المسلمين على النهضة والانتفاضة بوجه هذه الانحرافات والضلالات.

ثانياً: المضامين الفكرية لثورة الامام الحسين

إن خصوصية الأربعين هو إحياء ذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام وأهله وأصحابه وهذا الامر بالغ الاهمية ، إذ لولا هذه الشهادة العظيمة في التاريخ، لكان بني أمية مثلما أنهم في ذلك اليوم قتلوا الحسين بن علي وأصحابه وأزالوهم واخفوا أجسادهم المطهرة تحت التراب قد تمكنوا من محو ذكراهم من أذهان جيل الناس في ذلك اليوم وفي الأيام اللاحقة.

لا يختلف اثنان على أن زيارة الأربعين قد تحولت في كل عام إلى حدث عالمي مهم من أحداث العالم بل أكبر حدث عالمي من حيث مشاركة البشر ولم تعد هذه الزيارة مقتصرة على البعد المحلي كما كان الوضع في القرون السالفة، بل انتقلت إلى البعد العالمي، لمشاركة الناس من مختلف الأجناس والأعراق والقوميات والبلدان والأديان والمذاهب فيها، ولوجود الوسائل الإعلامية الحديثة، ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من وسائل الإعلام الجديد التي تنقل يوميات الأربعينية وصور ملايين المشاة إلى كربلاء، مما جعل هذه الزيارة المليونية تفرض نفسها على الجميع بلا استثناء.

وعند إمعان النظر في القضية الإصلاحية للإمام الحسين (عليه السلام) نراه (عليه السلام) قد ربط بين العقيدة والثورة الإصلاحية؛ لأن الثورة بدون عقيدة لامعنى لها، فحتماً سوف تفشل ولا يستمر الإصاح الديني لتلك الثورة.

وعليه تكون العقيدة هي من المحاور الأولى التي: (تتمثل في نظر الإسلام بعقيدة التوحيد، وكل متفرعاتها من النبوة وامتدادها في الإمامة، والإيمان بالدار الآخرة والحساب والجزاء وامتداد الإيمان بالدار الآخرة، الإيمان بقضية العدل الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى، فالعقيدة تمثل الأساس الرئيس والمهم في ثبات أي مجتمع، فبمقدار ما تكون العقيدة قوية وصحيحة وأصيلة وواضحة، يكون هذا المجتمع ثابتاً ومستحكماً، وبمقدار ما تكون هذه العقيدة هزيلة وباطلة ومنحرفة وليس فيها وضوح بالنسبة إلى الناس، يكون هذا المجتمع مجتمعاً مهزوزاً ضعيفاً، من الممكن أن تعصف به الأهواء وتطيح به الحوادث()،

وعند الرجوع والبحث في نهضة الإمام الحسين ((عليه السلام) نجد ان النهضة المباركة لم تنتهِ فعلاً فقد تكرست مرة أخرى في زيارة الأربعين وما تحمله تلك الزيارة من أفكار مواكبة للعصر، فالزيارة تمثل القيمة الحقيقة لكل زائر يخوض غمار الزيارة.

فقد احتوت زيارة الأربعين على أمور كثيرة وغير متوقعة

فقد جسد الإمام الحسين (عليه السلام) ذلك الفكر القويم في كربلاء قبل الآلف السنين، ومن المؤكد ان أي فكر او سلوك تمضي عليه بضع سنين فأنه حتماً يندثر ولم يبقَ طويل الأمد، لكن ما صنعه الإمام الحسين (عليه السلام) هو كسر كل تلك القوانين والأنظمة المهيمنة على الأفكار التي تقيد الإنسان وتضعهُ تحت حاكمية الأفكار التي يتحكم بها رواد الضلالة، والاستكبار واعداء الإسلام المحمدي.

فقد يتجلى في زيارة الأربعين الكثير من السلوك الذي تسعى له بعض المجتمعات، ولكن لم تتمكن من المضي في تحقيق الأهداف المرجوة فيه، او تفشل في طرح السلوك المتكامل، اما ما طرحه الإمام الحسين (عليه السلام) فإنه السلوك الكامل الذي يقوم سلوكيات المجتمعات، وقد استمرت تلك السلوكيات المتكاملة حتى وصلت إلى يومنا هذا، فزيارة الأربعين هي تمثل البث المباشر لجميع السلوكيات المقومة للمجتمعات عامة.

فكان شعار الإمام الحسين (عليه السلام) ما خرجتُ أشراً ولا بطراً ولا مُفسداً ولا ظالماً وإنما خرجتُ لطلب الإصاح في أمة جدي لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر)، فهذا الشعار يبين لنا الحالة التي كانت تعيشها تلك المجتمعات التي عاصرت الإمام الحسين (عليه السلام)، فرغم خطورة الموقف الكبير الذي يعلم به الإمام الحسين (عليه السلام) لم يثنِ عزيمتهُ أي شيء.

وعلى الرغم من أن مناسبة زيارة أربعينية الإمام الحسين (عليه السلام) تعد من المناسبات الدينية السنوية المقدسة للمسلمين عموما، وللشيعة على وجه الخصوص، إلا أنها من حيث الجوهر تنطوي على أهداف متعددة لا تنحصر في جانب محدد، فهي بالإضافة الى صفتها الدينية والشعائرية والاجتماعية وما شابه، على نحو الخصوص، ليرتفع بمستواهم الثقافي إلى أعلى درجة ممكنة، لما للثقافة من دور كبير في تطوير حياة الناس.

اثار زيارة الاربعين على المجتمع

.1 زيارة الأربعين تمثل أكبر تكافل اجتماعي عالمي.

يوجد تكافل اجتماعي عالمي، وهذا التكافل محدود بضوابط لا يمكن إهمالها التي من خلالها نشأت فكرة التكافل الاجتماعي على أساس المساعدة بين الأشخاص، فكانت نهضتهُ إنسانية نابعة من الفطرة الإنسانية التي فطر الله الإنسان عليها وهي عمل الخير ومساعدة الآخرين.

وكما قلنا أعلاه ان التكافل محدود، ولكنه لُم يصمت البتة امام تكافل زيارة الأربعين، حيث تمثل زيارة الأربعين التكافل الاجتماعي العالمي الذي لا يوجد منه في أرجاء العالم، ولا يتمثل هذا التكافل بدفع المال فقط، وإنما قد تجاوز أكثر من ذلك ومن الأمثلة عليه: (بناء بيوت للفقراء، مساعدة المحتاجين أصحاب العمليات، التكفل بزواج المحتاجين، فتح مدارس..).

– البعد الأخلاقي لزيارة الأربعين

عندما تحدث تجمعات عالمية لحدثٍ ما، فيكون التجمع خليطاً من طبقات المجتمعات ولا يمكن الفصل بين تلك الطبقات، كلاً على حده حسب ميزته الأخلاقية وهذا من الصعب فتحدث في بعض الأحيان المشاجرات الكبيرة ولا يمكن حلها من قبل المعنيين بحفظ الأمن في ذلك المكان، وهذا ما يميز زيارة الأربعين على غيرها من التجمعات العالمية،

فزيارة الأربعين تحمل في طياتها مختلف الطبقات من المجتمع ومختلف الدول العالمية، ومن مختلف الديانات، المسلمة وغير المسلمة، وفي هذه الحالة قد اصبح هناك مزيج من الثقافة الأخلاقية التي يتمتع بها كل شخص من افراد المجتمع،

وحسب قولنا اعلاه فلا بد من حصول المشاجرة بين أفراد المجتمع الذي تجمعوا لإحياء شعيرة الأربعين، وهذا مجرد كلام، اما في حقيقة الأمر وعلى ارض الواقع، فلا يوجد حقيقة او افتراضاً لشجار ما في شعيرة الأربعين، بل العكس تماماً من ذلك نجد أن تأثير العبد الأخلاقي

لزيارة الأربعين ساري المفعول على كل شخص من افراد المجتمع وعلى مختلف الديانات، حيث تجد السكينة الأخلاقية تسيطر على كاريزما الإنسان، وتجدهم قد انتزعوا الغرور والانا من انفسهم، ذلك بفضل تأثير زيارة الأربعين.

3- العبادة الخاشعة والتقرب إلى الله

ان من اهم الميزات العبادية التي تحدث في شعيرة الزيارة الأربعينية هو الخشوع اللاإرادي لدى الإنسان حيث يشعر الإنسان شعور خاص غير مسبق وغير مهيئ للنفس له حتى لا يدخل في باب الرياء، فيكون الخشوع نابع من أعماق ذات الإنسان.

فيكون التوجه نحو العبادة بجميع اشكالها مثل الصلاة، والتسبيح، والاستغفار، وذكر الله...

وهذا جانب اما الجانب الآخر هو التحشيد للصلاة عند وقتها في زيارة الأربعين، فترى الناس عند وقت الصلاة قد توقفوا عن المسير، واتجهوا نحو القبلة لأداء الصلاة، فقد تحدث في كل سنة من كل عام صلاة مليونيه في الصحن الحسيني أو في طريق المسير نحو كربلاء المقدسة.

وعند الدخول إلى الصحن الحسيني او العباسي ترى الناس بجميع اصنافها واشكالها، انهم متوجهين نحو خالق واحد ازلي، وهم متوجهون بالدعاء نحو السماء، فترى الخشوع والاطمئنان والسكينة تسود المكان، وهذا لا يحصل في أي مكان آخر.

زيارة الأربعين تمثل القوة الضاربة بوجه الطغاة رغم سلمية التجمع ان التجمع المليوني الإنساني في كربلاء من كل عام ما هو إلا تلبية نداء الإمام الحسين حينما قال: (لا اعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا افر فرار العبيد)،

فمن هذا الكلام الجوهري الذي بقي في أذهان الاحرار، فهو يمثل لهم طريق مقارعة الظلام العالمي الذي يهدد العالم الإسامي بين الحين والآخر، فأحرار الحسين في كل زمان ومكان لا يمكن لهم ان يسكتوا على الظلم والعدوان مهما كل الأمر، وخير دليل لما قلنا، والذي ليس بزمن بعيد عن الأذهان، حينما اعتدى داعش (الظلام) على بعض مناطق العراق، فما كان من احرار الحسين (عليه السلام) إلا التدخل لمنع الاعتداء وهتك الحرمات.

وقد جاء ذلك من خلال فتوى الجهاد المتمثلة بالمرجعة العليا في العراق، حيثُ كانت المرجعية تمثل خط الحسين (عليه السلام) في العصر الحديث، وهذا ما ثبت فعلا وامام الأنظار، وهذا يدل

على أن منهج الحسين (عليه السلام) عامر في كل عصر ومصر ولا يندثر ولا يتغير المبدأ الذي رسمه لجميع الاحرار.

وحيث ان لزيارة الأربعين لها دلالات كثيرة ومعاني وهي رسالة واضحة المعالم إلى كل الطغاة بإن تواصلنا مع الإمام الحسين (عليه السلام) هي قضية مبدأ وتعتبر مراسيم زيارة الأربعين إلى الإمام الحسين صرخة مدوية ضد الظالمين والطغاة وتحفز الزائرين على المجيء إلى كربلاء من اجل تجديد البيعة للإمام الحسين (عليه السلام)

إن الإصلاح الذي كانت تسعى إليه كربلاء تحقق على مستويين المستوى الأول: الإصلاح الداخلي في البيت الشيعي الذي يحمل المبادئ الصحيحة، والعقائد القويمة؛ لتقديمها إلى المسلمين بشكلها الصحيح، فنرى الشيعة استطاعوا - ومن خلال الحقة الاستهداء بنور الإمام الحسين عليه السلام - أن يقدموا للعالم الإسلامي الوجه الحقيقي للإسلام وتعاليمه السمحاء المتمثلة برفض الظلم والخنوع، وفي الوقت نفسه العمل على لم شمل المسلمين وصيانة وحدتهم، وهذا ما ينطق به كلّ منبر حسيني، وتنادي به كل حسينية شامخة، ويشهد بها كل خطيب .

فاليوم، صوت المنبر الحسيني يعلو في كل بقاع العالم، والمعالم الحسينية منتشرة في أرجاء المعمورة، وهذا هو انتصار الدم على السيف، وانتصار الحق على الباطل، وما كل هذا إلا ثمرة من ثمار تلك النهضة العظيمة.

المستوى الثاني: الإصلاح العام، والحفاظ على المظاهر الإسلامية في المجتمع الإسلامي بصورة عامة، فإنّ النهضة الحسينية قد حافظت على تلك الظواهر ومنعتها من الاندراس وهذا يعني أن عطاء هذه النهضة المباركة لم يقتصر على دائرة الخواص من الشيعة الموالين بل إن عطاءها أثرى البيت الإسلامي ككل، ومنع المخطط الشيطاني الذي كان يسعى لمحو الدين.

إن حفظ المظاهر والشعارات الدينية يُساهم في الحفاظ على الدين من الانحراف بالكامل عن قواعده وأساسياته ومبادئه؛ فإن تغيير روح تلك المبادئ والقوانين وتفريغها من محتواها وواقعها، وإن كان بدرجة من الخطورة والسلبية، إلا أنه لا يمكنه إزالة الدين من الأساس؛ لذلك نجد أن الخط الشيطاني يرى أنّ ما قام به معاوية لم يكن مكتملاً ، فسعى جاهداً لتكميله من خلال موبقات يزيد ولهوه وانحرافاته، إلا أن النهضة الحسينية كانت المانع الأكبر من تحقيق هذه الغايات الشيطانية المشؤومة.

وفي الختامم يمكن القول ان التاريخ الإسلامي شهد الكثير من المعارك والثورات التي أضمحل واندثر تأثيرها مع مرور الزمن، إلا واقعة الطف في كربلاء في 10 محرم سنة 61 هـ/ 680 م والتي قاد ثورتها ضد الظلم والطغيان الأموي الأمام الحسين بن علي (عليهما السلام)، إذ ان الزمن يزيد من اشراقها وضيائها، وفي كل عام يجدد المسلمون احياء ذكرى هذه النهضة، ويستلهم الملايين منها الدروس والعبر. أن نهضة الامام الحسين (عليه السلام) وما اشتملت عليه من مظاهر التضحية بكل عزيز على النفس البشرية من الولد والمال في سبيل المبدأ والصالح العام مع القلة في العدد واليأس من النصر العسكري، شكلت تحدياً بارزاً ورئيساً للاستبداد والطغيان الذي كانت تمثله الدولة الأموية لما لهذه الثورة من مبادئ انسانية سامية هدفها القضاء على الظلم وتحقيق العدل والمساواة على وفق المنهج الإسلامي الصحيح، كما ان الامام الحسين (عليه السلام) من خلال ثورته المباركة قد زرع بذور الحركات الثورية المناهضة للباطل والظلم والمطالبة بالحق والعدل في مواجهة الحكام المستبدين خلال التاريخ الإسلامي. كما ان الأهداف الكبيرة والعظيمة التي نهض واستشهد من أجلها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه والسعي بكل الوسائل المتاحة وكذا إبرازها على المستوى العالمي لإيصال رسالة الإمام الحسين إلى كل العالم، ومن أبرزها الإصلاح الشامل، وإقامة العدل والقسط، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على الدين وقيمه....